علي بن عيسى بن الفرج[١]

أبو الحسن، الرَّبَعي، صاحب أبي علي الفارسي، ولد سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة، وقرأ الأدب ببغداد على السِّيرافي، وخرج إلى شيراز، فدرس بها النحو على الفارسي عشرين سنة، ثم عاد فأقام ببغداد باقي عمره.

خرج يوماً يمشي على جانب الشطِّ، فرأى الرضيَّ والمرتضى في سفينة ومعهما عثمان بن جني، فصاح: من أعجب أحوال الشريفين أن يكون عثمانُ جالساً في صدر السفينة، وعليٌّ يمشي على الحافَة. فضحكا وقالا: بسم الله.

وكان فاضلاً، فكان أبو علي الفارسي يقول: قولوا له: لو سِرْتَ من الشرق إلى الغرب لم تجد أحداً أنحى منك.

وكانت وفاته عن اثنتين وتسعين سنة، ودُفِنَ جوار معروف في المُخرِّم. قال ابن خيرون: لم يتبع جنازته سوى ثلاثة أنفُس.

السنة الحادية والعشرون وأربع مئة

فيها في يوم عاشوراء علَّق أهلُ الكَرْخ المُسوح، وعطلوا البيوع والشراء؛ رجوعاً إلى العادة الأولى، وأطمعهم بُعدُ[٢] الأتراك، فقامت الفتن، وقُتِلَ بين الفريقين جماعة.

وفيه خُطِبَ للأمير أبي سعيد مسعود بن محمود بن سُبُكْتِكين بعد والده بأرمينية والأطراف، ولقبه شهاب الدولة.

وفي صفر وردتِ الأخبارُ إلى الأجلِّ العادل أبي منصور بشيراز أنَّ مسعود [بن محمود بن سُبُكْتِكين] وصل [إلى] أصبهان، وانهزم علاء[٣] الدولة بن كاكويه[٤] من بين

(١) تاريخ بغداد ١٢/ ١٧، والمنتظم ١٥/ ٢٠٣، ومعجم الأدباء ١٤/ ٧٨ ـ ٨٥. وينظر السير ١٧/ ٣٩٢.
(٢) في (م١): بعض، وهو تحريف، والمثبت من باقي النسخ والمنتظم ١٥/ ٢٠٤ والخبر فيه.
(٣) تحرف في (خ) و (ف) إلى: عماد، والمثبت من (م) و (م١).
(٤) تحرف في (ف) إلى: باكويه، والمثبت من باقي النسخ.

يديه، ووافتِ الأجلَّ رسلُ[1] مسعود، فأكرمهم وردَّهم بالجواب الجميل، وشرع في الاستعداد، وتقدَّم إلى العساكر بأَخْذِ الأُهبة، وبينا هو يستعدُّ لهذا الخَطْبِ جاءه كتابٌ أنَّ جلال الدولة دخل الأهواز، فسار إليها مساعداً لأبي كاليجار، لثلاثٍ بَقِينَ من ربيع الآخر، فوصلها سلخ جمادى الأولى، فوجد البلدَ منهوباً، والسلطانَ منكوباً، فرجع إلى فارس بسبب الخراسانية.

ومن العجائب أنه اتَّفق في هذه السنة اجتماعُ خمسةِ ملوك، كلُّ واحدٍ منهم يرومُ صاحبَه، ولم يتهيَّأ لواحدٍ منهم ما أراد، [وهم]: جلال الدولة، وابنه أبو منصور، وأبو كاليجار، ومسعود بن محمود، وابن كاكويه، ثم عاد جلال الدولة إلى العراق، وأبو كاليجار إلى الأهواز، ومسعود إلى خُراسان، وابن كاكويه إلى الريِّ، واستولى مسعود على أصبهان والريّ وهَمْدان.

وفي ربيع الأول خرج أبو كاليجار والدَّيلم من واسط إلى الأهواز، وقد ذكرنا أنَّ جلال الدولة لمَّا وصل إلى واسط لم يقدِرْ على مقابلة أبي كاليجار، فقصد الأهواز، فخرج أبو كاليجار إلى الأهواز، وتأخَّر جماعةٌ من التُّرك، فخُطِبَ بها لجلال الدولة، ومضى إلى الأهواز، فشاور أبو كاليجار أصحابَه، فاتَّفقوا أنَّه يُنفِذُ بعضَ العسكر إلى بغداد، فيستولي عليها، ويُحيطُ بدار الخلافة، ويأخذُ ما فيها، ويُقيمُ هو بواسط، فإن رجع الأتراكُ إليها دفعهم، فبينا هم[2] كذلك وقعوا بكتاب من حسام الدولة ابن أبي الشوك إلى جلال الدولة وأصحابه، مضمونه أنَّهم مشغولون بأمر مُصَغَّر في جنب ما قَدْ دَهَمَ الدولةَ، هذا مسعود بن محمود قد استولى على الريِّ وأصبهان وهمدان، وأطاعه الخلقُ، وهو عازمٌ على قصد العراق، والمصلحةُ الصلح، وتكونون يداً واحدةً وتدافعون هذا العدو. فوقف عليه أبو كاليجار والجماعةُ، ورأوا أن يبعثوا بالكتاب إلى جلال الدولة وإلى الإسْفهسلارية، ويتَّفقوا على الصلح، فكتبوا الكتاب، وبعثوا به، وقال الدَّيلم لأبي كاليجار: المصلحةُ أن تُدرِكَهم، فقد مضَوا إلى بلدٍ فيه أموالُكَ وخزائِنُكَ وأولادُكَ ووالدتُكَ، وتدافعهم وتمنعهم من ذلك. فقال: هذا هو المصلحة.

---

(١) في (م) و (م١): رجال.

(٢) في (خ): فيما بينهم، والمثبت من (ف).

ومالت الدَّيلم الخوزستانية إلى هذا لأجل أهلهم وأوطانهم، وجاء كتاب جلال الدولة: أنت ولدي، وسلطانُ الدولة أبوكَ أخي. ومال إلى الصلح، إلا أنه قال: اخرُجْ من بلادي ليتقرَّر الأمرُ. وبلغ أبا كاليجار أنَّ التُّركَ قد وصلوا إلى المأمونية، فسار مُجِدًّا والدَّيلم، فورد كتاب الطير إلى بغداد في حادي عشر ربيع الآخر أنَّ جلال الدولة دخل الأهواز فضُربَتِ البشائر.

فصل:

قد ذكرنا أنَّ الأتراكَ البغادِدة لمَّا وصلوا إلى واسط وجدوا أبا كاليجار قد احترز بها، وأطلق المياه، فحالت بين الفريقين، وخاف الإسْفَهسلارية أن يطول المُقامُ فيهم بين أن ينصرفوا إلى بغداد، فتكون الهزيمة، أو يدخلوا في طاعة أبي كاليجار بحكم الضرورة، فعملوا على قصد الأهواز، وأطمَعوا صغارَهم فيما ينهبون من الأموال، فساروا [على كلمةٍ مختلفةٍ، ودعائم ضعيفة، وخافوا على أهلهم ببغداد، فساروا] يطوون المنازل، وينهبون كلَّ ما يجدونه، إلى أن وصلوا إلى المأمونية لسبعٍ بَقِين من ربيع الأول، فوجدوا الماء زائداً، والسُّفنَ معدومةً، والمِيرةَ متعذِّرةً، فتحيَّروا، ثم حصلوا مِصْرين من بعض السواد، وكان بها جماعةٌ من الدَّيلم والأتراك، فواقعوهم، فانحاز التُّرك إلى التُّرك، وانهزم الدَّيلم وقُتِلَ بعضُهم، وهجموا البلد، فنهبوا المنازل والخانات والدُّور، وأخذوا من الحُليِّ والجواهر والأمتعة ما يتجاوز الحصر، واستمرَّ النَّهبُ ستة عشر يوماً، حتى أتَوا على كل مذخور، وارتكبوا كلَّ محظور، وأخذوا من دار رجلٍ واحدٍ ـ يُقال له: ميمون البيع ـ ما مِقدارُه سبع مئة ألف دينار، فيقال: إنهم أخذوا من البلد زيادةً على خمسة آلاف دينار، وألفَي جاريةٍ رقيقاً، وأمَّهاتِ أولادٍ وحرائرَ من أبكارٍ وثيِّبٍ، وأتلفوا من الأمتعة بمقدار ما أخذوا، وكان المُقامِرون يُقامرون بالجواهر والسبائك من الذهب، ولحِقَ هذا البلد من هذه المصيبة ما أهلَكَه واستأصَلَه، وأتلفَ أهلُ البلد جماعةً من الأعيان كانوا يدخلون الدُّور فيقتلونهم، ودخل جلالُ الدولة دارَ الملك فوجدها مملوءةً بالثياب والفُرش والأواني، فاستولى على الجميع، وقبض على والدةِ أبي كاليجار وأختِه ـ المُزوَّجة من أمير الأمراء أبي منصور ـ وابنتِه وأمِّ ولدِه وزوجتِه، ولجأ باقي الحُرَمِ إلى دار الأخت بنت بهاء

الدولة، فدخل الأميرُ أبو منصور فأخذهُنَّ من يدها، ورجع الأتراك إلى المأمونية فطالبوه بالقسط، فقال: قد نهبتُم ما نهبتُم، وقد عرفتُ مقدارَه، فما هذه المطالبة؟ وإنما ينبغي أن أُقاسِمَكم. وركب وخرج من بينهم، فأرضاهم ببعض القسط، وبينما هم على ذلك ـ وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ـ جاءهم الخبرُ بنزول علاء الدولة بن كاكويه تُسْتَر منهزماً من أصبهان، ووصولِ الملكِ أبي كاليجار، فأشفقوا من المقام وساروا، فالتقوا بأبي كاليجار، واقتتلوا، فانهزم، وقتلوا من الدَّيلم مقتلةً عظيمةً، وأسروا أعيانَ أصحاب أبي كاليجار، وكان من المأسورين أبو الفرج بن أبي القاسم بن فَسانْجِس، وعاد جلال الدولة إلى واسط والأتراكُ معه، وأمَّا أبو كاليجار فإنه لمَّا انصرف من الوقعة وراسل جلالَ الدولة، وأعطاه بلدَ واسط والبصرة وأماكنَ، وأن يحمل إليه مالاً ويخطب له، وانفصل جلالُ الدولة على هذا، ودخل أبو كاليجار الأهوازَ، فوجدها خاويةً على عروشها، ثم خرج منها إلى عسكر مكرم، وعزم على أَرَّجان، فوافاه الأجَلُّ العادلُ أبو منصور بَهْرام بمالٍ من فارس، وعساكرَ وخيلٍ وفُرُشٍ ومتاعٍ، فتعمَّرت خزائنُه وإصطبلاتُه، وتراجعت حالُه، فكتب إلى جلال الدولة في معنى المأخوذات من حرمة والدته وغيرها، وما أخذ منهنَّ، وكانت أمُّه لمَّا وصلت إلى واسط ماتت، ولم يُفرِجْ عن الباقيات، وأُجيب بجواب التعليل وتسليم ما استقرَّ.

وفيها خطب القادرُ لابنه أبي جعفر عبد الله بولاية العهد، وكان مذ توقَّف قبل ذلك مرض، فجلس للناس، فدخلوا عليه، وظهر لهم، فسأله الخواصُّ والإسْفَهسلارية أن يُخطَبَ له، فأمر بالخطبة، ومرت السِّتارةُ بينه وبين الناس، وتقدَّم أبو الحسن ابن حاجب النعمان فقبَّلَ يده وهنَّأه، فقال الأمير أبوجعفر: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] وكان يتَّهمه بأنه هو الذي أفسد ما بينَه وبين أبيه، فجعل يبكي ويُقبِّل الأرضَ بين يديه، فلمَّا كان يوم الجمعة لسبعٍ بقين من جمادى الأولى خُطِبَ له على المنابر، ولُقِّب بالقائم بأمر الله، وضُرِبَ اسمُه على الدراهم والدنانير، وفي السنة الماضية ما كان يُصرَّح باسمه، بل يُقال بعد الدعاء للقادر: اللهمَّ وأَمْتِعْه بذخيرة الدِّين المرجوِّ لولاية العهد في العالمين، ثم جاء عقيب هذا كتابُ جلال الدولة إلى القادر يسأله أن يعهد إلى القائم، فكان في كتابه: عِلْمُ سيِّدنا ومولانا الإمام القادر

بالله أميرِ المؤمنين ـ أطال اللهُ بقاءَه، وأدامَ عليه نعماءَه ـ مُحيطٌ بأنَّ الله سبحانه قد جعل لكلِّ شيءٍ أمداً، لا يزال أبداً، وسوَّى بين العالم في قضائه المحتوم، وقدَرِه المبروم، فلم يُخْلِ منه نبياً ولا صفياً ولا ولياً، وقد سار مولانا في العالم أحسنَ السِّيَر، حامياً للخواصِّ والعوامِّ من الغِيَر، والأولى إنعامُ النَّظر في حاضر يومه لغدِه، وإعدادُ ما يُستظهر به من عُدَدِه؛ لئلاَّ يسألَه الله يوم المَعادِ عن حقٍّ أهمَلَه من أمر العباد، والحضرةُ الأميريةُ الجعفريةُ مستحِقَّةٌ لولاية العهد بعد الأمد الفسيح، الذي نسأل الله أن يُطيله، والعبدُ يرغب إلى المواقف المقدسة النبوية المحفوفة بالأسرار الإلهية، أن يشُدَّ أزْرَ الخلافة بإمضاء العهد لها، وذكر كلاماً طويلاً.

وفيها غزا فَضْلُون الكردي، فوصل إلى الخزر، فقتل وسبى، وغنم أموالاً كثيرةً، وخرج من بلادهم، فنزل بمكانٍ قريبٍ منهم، ولم يحترز، ونام هو وأصحابه، وكانوا قد تبعوه، ولم يكن له طلائعُ فكبسوه، وقتلوا من أصحابه عشرة آلاف، واستعادوا الغنائم والأسرى، وأفلَتَ في نفرٍ يسير.

وفيها وقعت فتنةٌ عظيمةٌ بين الأتراك والهاشميين ببغداد، ورفع الهاشميون المصاحف على رؤوس القصب، ورفع التُّركُ الصُّلبانَ على الرِّماح، وكانت الفتنة بين أهل باب البصرة والكَرْخ، وكان الأتراكُ مع أهل باب البصرة، والهاشميونَ مع أهل الكَرْخ، وركب نائبُ السلطنة فلم يقدِرْ أن يفصل بينهم حتى قُتِلَ من الفريقين جماعةٌ، وانفصلوا، وأصلح الوزيرُ بينهم.

وفيها عاد جلالُ الدولة إلى بغداد من واسط.

ولم يحجَّ أحدٌ من العراق في هذه السنة(١).

وفيها تُوفِّي

أحمد بن عبد الله بن أحمد

أبو الحسن، يُعرَف بابن الرَّان، أصله من الجزيرة، و[ذكره الحافظ ابن عساكر فقال]: سكن دمشق، وكان يعظ في باب الزيادة بجامع دمشق تحت اللازوردية وهناك

(١) تنظر الأخبار في المنتظم ١٥/ ٢٠٥ ـ ٢٠٩.

كان يجلس الوُعَّاظ، وكان له تصانيفُ في الوعظ وأشعارٌ، وكان صاحبَ معاملات وكرامات، وأنشد ليلةَ العيد لنفسه: [من مجزوء الرمل]

أنـا مـا أصـنـعُ بـالـلَّـذَّاتِ شُـغـلـي بـذنـوبـي

إنَّـمـا الـعـيـدُ لِـمَـنْ فـا ... زَ بـحَـظٍّ مـن حـبـيـبِ
أصـبـحَ الـنـاسُ عـلـى رُوْ ... حٍ ورَيْـحـانٍ وطِـيـبِ
ثـمَّ أصـبـحـتُ عـلـى نَـوْ ... حٍ وحُـزْنٍ ونـحـيـبِ
فـرحـوا حـيـن أهـلُّـوا ... شـهـرَهـم بـعـد الـمـغـيـبِ
وهـلالـي مـتـوارٍ ... مـن ورا حُـجْـبِ الـقُـلـوبِ
فـلـهـذا يـا خـلـيـلـي ... قـلـتُ لـلـذَّاتِ غـيـبـي
وجـعـلـتُ الـهـمَّ والـحُـزْ ... نَ مـن الـدُّنـيـا نـصـيـبـي
يـا حـيـاتـي يـا مـمـاتـي ... يـا سَـقـامـي يـا طـبـيـبـي
خُـذْ لـصَـبٍّ يـتـلـظَّـى ... مـنـكَ مـن حـرِّ الـلَّـهـيـبِ

وأنشد: [من السريع]

أحـبـبـتُـه فـرداً لأنَّ الـهـوى ... تـوحـيـدُه أحـسـنُ مـن شِـرْكِـهِ
مـلـكْـتَـنـي أحـسـنَ مـلـك الـهـوى ... قـد يُـحـسِـنُ الـمـولـى إلـى مِـلْـكِـهِ
فـلـو أرادَ الـلـهُ سَـتْـرَ الـهـوى ... مـا سـلَّـطَ الـدمـعَ عـلـى هَـتْـكِـهِ
إنْ كـان لا يُـرضـيـكَ إلَّا دمـي ... فـقَـدْ أذنَّـا لـك فـي سَـفْـكِـهِ

وكانت وفاته بدمشق في جمادى الأولى، ودُفِنَ بمشهد القدم.

[وفيها تُوفِّي]

علي بن عبد العزيز بن إبراهيم(١)

أبو الحسن، الكاتب، ويُعرف بابن حاجب النعمان، كاتب القادر بالله، ولد في شعبان سنة أربعين وثلاث مئة، وكان أبوه يخدم أبا عمر المُهلَّبي في أيام وزارته، وكتب عليٌّ للطائع لله، ثمَّ للقادر بالله، سنة ست وثمانين وثلاث مئة، فكتب للخليفتين

(١) تاريخ بغداد ١٢/ ٣١، والمنتظم ١٥/ ٢١٠.

أربعين سنة، وهو الذي بعثه الطائع ليقبض على القادر، وكان يضرب بين القادر وأبيه القائم، وما كان يؤثر خلافة القائم ، فلمَّا خُطِبَ له خاف، واتَّفق موتُه يوم الجمعة وقتَ الظهر لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب، ودُفِنَ ببركة زلزل، ثم نُقِلَ تابوتُه إلى مقابر قريش سنة خمس وعشرين وأربع مئة، وكان كاتباً فصيحاً بليغاً.

[وفيها تُوفِّي]

محمود بن سُبُكْتِكين

أبو القاسم، يمين الدولة، أمير خراسان، وكان أبوه سُبُكْتِكين ـ وكنيته أبو منصور ـ صاحبَ جيش الملوك السامانية ملوك سمرقند وفَرْغانة وما والاها [أكثر من مئة سنة وقد ذكرناهم]، فاستولى سُبُكْتِكين على خُراسان بعد وفاة منصور بن نوح، وتُوفِّي سُبُكْتِكين سنة تسع وثمانين(١) وثلاث مئة.

ووُلِدَ محمود يوم الخميس الرابع عشر من ذي الحجَّة سنة إحدى وستين وثلاث مئة، ولما تُوفِّي أبوه تنازع محمود وأخوه إسماعيل، فظهر عليه محمود، واستولى على خُراسان، ثمَّ سار إلى السامانية، فاستولى على ملكهم، وأقام الخطبة للقادر، ولم يكونوا يخطبون له، وراسَلَ(٢) بهاءُ الدولة أبا نصر بن بويه بأبي عمر البسطامي، وبعث معه هدايا وفِيَلَة، وسأله خطابَ الخليفة في توليته، فسفر بينهما، وكتب إلى فخر الملك يتولَّى ذلك ويقول: قد خطبَ للخليفة في أماكن لم يخطب له فيها غيرُه. فأجابه القادر، وبعث إليه الخِلَع في شعبان سنة أربع وأربع مئة، ولقَّبه يمينَ الدولة وأمينَ الملة، ثم أُضيفَ إلى ذلك: بسطامُ الدين ناصرُ الحق.

ومَلَكَ [محمود] بلاد سِجِسْتان، ودخل الهندَ والسندَ، وفتح أماكن عظيمةً(٣) لم يصِلْ إليها غيرُه [وقد ذكرنا بعضها]، ونزل على بعض البلاد. [وقيل] (٤): على القلعة

(١) تحرفت في (م١) إلى: وثلاثين.
(٢) في (ف): أرسل.
(٣) في (م): كثيرة.
(٤) هذه الزيادة من سائر النسخ سوى (خ).

التي ذكرنا أنها تسَعُ خمس مئة ألف إنسان، فصالحه صاحبُها[١] على خمس مئة فيل وثلاثةِ آلاف بقرة، وبعث محمود إلى الملك قَباءً وعِمامةً وسيفاً ومِنْطَقَةً وفرساً بمركب ذهب، وخاتماً عليه اسمُه، وأمره أن يقطع أصبُعَه، وهي عادة التوثُّق[٢] عندهم، وكان عند محمود عِدَّةُ أصابع ممَّن هادنه، فلبس الخِلْعَةَ، وأخرج حديدةً فقطع بها أصبعه الصغرى من غير أن يتغيَّر وجهُه، وأحضر دواءً فطرحه عليها وشدَّها.

وغَنِمَ محمود من الهند أموالاً لم يغنَمْها غيرُه [وقبضَ على رستم بن علي بن بُوَيه صاحب الريِّ، وكتب إلى القادر أنَّه وجد عنده خمسين امرأةً، وقد ذكرنا القصة]. وخُطِبَ له في عامة بلاد المشرق، وعقَدَ جسراً على جَيْحون غَرِمَ عليه ألفي ألف دينار، ولم يقدِرْ على ذلك غيرُ الإسكندر، وكان في عسكره ألفُ فيلٍ يُقاتل عليها، وبلغَتْ جريدةُ عساكره مئةَ ألف فارسٍ وراجلٍ، وحُمِلَ إليه من النَّسْناس بِغَزْنة[٣] شخصان، والأتراك يصيدون النسناس ركضاً على الخيل؛ لِشدَّة عَدْوِهم، فإذا قصروا أخذوهم، وللنسانس قضيبٌ ـ يخرج من بين الشَّعر الذي على جسده إذا أنْعَظَ[٤] ـ أحمرُ مثلُ قضيب الكلب، ويُغوِّط كما تغوِّط البهائم، ولحومُهم أطيبُ اللحوم، فاستفتى محمود الفقهاءَ، فقالوا: لا يجوز أكلُ لحومِهم، وهم يَصْفِرون مثل الوحش، ويَرْعَون الحشيش.

ذكر وفاة محمود:

عرض له سوءُ مزاج وانطلاقُ بطنٍ، وهو على غزواته لا ينثني، فلمَّا نزل به الموتُ أحضر الجواهرَ التي اقتناها من ملوك خُراسان وما وراء النهر و[عظماء] التُّرك والهند، وكانت سبعين رطلاً، فصُفَّتْ بين يديه، فلمَّا رآها بكى بكاءً [شديداً][٥]، فتحسَّر

(١) في (م): ملكها.
(٢) في (خ): وهي عادية الهدية! والمثبت من باقي النسخ.
(٣) هذه الكلمة في (خ) وحدها وتحرفت فيها إلى: بعنزية، والتصويب من المنتظم ١٥/ ٢١٢، والسير ١٧/ ٤٩٤ وغيرهما من المصادر.
(٤) أنعظَ الذَّكرُ ونَعَظَ: قام. اللسان (نعظ).
(٥) هذه الزيادة من (م).

عليها، ومات بغَزْنة يوم الخميس لسبعٍ بَقِينَ من ربيع الآخر وهو ابن ثلاث وستين سنة، ملَكَ منها ثلاثاً وثلاثين سنة، ومات وهو مستندٌ في دَسْتِه، لم يضَعْ جنْبَه إلى الأرض.

وكان ديِّناً، كثيرَ الصدقاتِ والصِّلات والمعروف، وقام ولدُه مسعودٌ مقامَه وله نوادر، منها [ما ذكره محمود الأصبهاني] أنه مرض مرضاً مُزْمِناً، واعتُقِل لسانُه، فاتَّفق الأطبَّاء أن يُحمل على سريره ويُطاف به المارستانات على المرضى ليهون ما به، فأدخلوه بعض المارستانات، فجاء إلى بيتٍ مُقفَلٍ وعليه سلاسلُ، فأشار إليهم بيده أنِ افتحوه، فقال قَيِّم المارستان: فيه مجنون، لو ظهر لتأذَّتْ به المملكة. فقال: لا بُدَّ [من فتحه]. ففتحوه، وإذا بشابٍّ في عنقه سلسلةٌ، وفي رجليه قَيْدٌ، ويداه مغلولتان إلى عنقه، فلمَّا رآه ناداه: يا محمود، ما نفعَكَ مِلْكُكَ وسلطانُكَ حتى أتيتَ إلى المرضى تطلُبُ عندهم الشفاء؟ فأنطقَ اللهُ محموداً وقال: نَعَمْ، إنما جئتُ لأضعَ سلاسِلَكَ في عنقي، وأُفَوِّضَ إليكَ مملكتي. فقال له المجنون: لو فعلَ سيِّدي هذا ما احتَجْنا إلى وساطتِكَ. ثم قال: يا محمود، أنا راضٍ بما أنا فيه عن سيِّدي، فهل أنتَ راضٍ عن سيِّدِكَ؟ فبكى محمود وقال له: قد وجدتُ الشفاءَ ببركتِكَ، فسلني حاجةً. فالتفتَ المجنونُ إلى بعض مماليك محمود وسأله، فقال له محمود: أنا أقولُ لكَ: سَلْني، وأنتَ تسألُ مملوكي؟ فقال له المجنون: وكذا أنا أخافُ غداً أن يقول لي سيدي: تركتَ المالِكَ وسألتَ المملوكَ. فبكى محمود وقال: لا بُدَّ من حاجة. فقال: عِدْلُ قمح؟ قال: وما قيمةُ عِدْلِ قمح؟ اطلُبْ عِدْلَ جوهر. فقال: ما أُريد إلا عِدْل قمح. فقال: احْمِلوه إليه. فقال: ما أُريد أن يحمله إلا أنت. فقال محمود: واللهِ ما لي طاقةٌ أحمِلُ مُدًّا، فكيف أحمِلُ عِدْلاً؟ فقال: يا مسكين، إذا كنتَ لا تقدِرُ على حَمْلِ مُدٍّ [من] قمح فكيف تقدِرُ غداً أن تحمل حقوقَ العباد كلِّهم؟ فبكى محمود، وخرج من عنده، وأقام أياماً وتُوفِّي، وكان كلَّما ذَكَرَ كلامَ المجنون يبكي.

وقال هلال بن الصابئ: كان ابنُه مسعود بأصبهان، وبلغه خبرُ موتِه، فلبس السواد، وجلس للعزاء، ورتب صاحباً له بأصبهان، ورحل طالباً خراسان، فلمَّا سار قليلاً وثب

أهلُ البلد على أصحابه، فقتلوا منهم جماعةً، ولحِقَ به مَنْ أفلت، فعاد إلى البلد، فخرج إليه أهله وقاتلوه قتالاً شديداً، فلم يثبتوا له، فهزمهم ودخل البلد، وألقى فيهم السيف، فقتل أربعين ألفاً في المساجد والجوامع؛ لأنهم لجؤوا إليها، ونهب البلد، وسبى الحريم، وفعل فعلاً قبيحاً، وجاء إلى الريِّ فاستخلف بها بعضَ أصحابه، وسار إلى خُراسان.

ولقد عَظُمَ أمرُ محمود عِظَماً كبيراً، وقهر ملوكَ الهند قهراً كبيراً، وفعل الأفاعيل المذكورة، ووقف المواقفَ المشهورة، وجمع من الأموال ما ملأ به القلاع والخزائن.

وكان ظاهِرُه التديُّن والتسنُّن مع شُربِه للنبيذ على الدوام والاتصال، وتصرُّفه على الأخلاق التركية في أكثر الأحوال، وكان في مسيره شديدَ الغِلْظة، ثقيلَ الوطأة، قاصداً أخْذَ الممالك على أحسن طريقة وأصعب مطالبة، إلَّا أنه مع ذلك يحمي النواحي ويحوطُها، ويحرس الطُّرقَ ويضبطُها، ويُقيم السياسة على أفضل رسومِها وأكمل شروطِها، وكان مرضُه بالعِلَّة التي كان يُقاسيها منذُ ثلاث سنين، وهي سوء المزاج وانطلاق البطن في الأسبوع أياماً حتى يمسك بالأدوية، وهو في جميع ذلك لا ينثني عن مقاصده وغزواته، ولا يُخِلُّ بأسفاره ونهضاته، ولم يترُكْ إلى آخر أيامه في مرضه الجلوسَ للإذْنِ العامِّ مرتين بالغداة والعشيِّ، وكان أطِبَّاؤه يأمرونه بالرفاهة فيقول لهم: تريدون أن أعتزِلَ الإمارةَ. ولم يضَعْ جنبَه إلى الأرض عند موته، و[لمَّا مات محمود] حُمِلَ تابوتُه من قصره إلى قصرٍ كان بظاهر البلد يُدعى بالفيروزي كان أيامَ مُقامِه بغَزْنَة، يؤثره على سائر قُصوره.

وضبط عليٌّ الحاجبُ الأمورَ مع اضطراب البلد، وواصل الكُتُبَ إلى الأمير محمد ابن محمود بالحثِّ على التعجيل، وكان بالجُوزْجان، فخرج منها بعسكره، فوصل إلى غَزْنة بعد أربعين يوماً.

وقال العباس بن الحسين البَنْدنيجي: كان رجلٌ من السَّامانية يُكنى بأبي إبراهيم، وكان الصعاليك يجتمعون إليه، فيقصِدُ بهم ناحيةً ناحيةً يجبي خَراجها، وربما فعل

ذلك فيما وراء النهر، وكان محمود يُكاتبه ويستميلُه، وبَذَلَ له أن يُزوِّجه ابنتَه، فلم يقبَلْ، وقال: يريد مني أن أخْدُمَه، وأقِفَ في مجلسه، وأُقَبِّلَ الأرض بين يديه، وهذا شيء لا تطاوعني نفسي عليه أبداً، وأنا أجول في هذه البلاد بقيةَ عمري ولا أذِلُّ لأحد. وكان محمود يُنفِذُ السرايا في طلبه، وهو ينتقل من مكان إلى مكان، ويتعرَّف محمود خبرَه، فيسترحِلُه ويستجلِدُه، فجرد إليه أرسلان الحاجبَ أميرَ طوسَ، وقال له: إذا وقع في يدك فلا تُحدِثْ فيه حَدَثاً وأحضِرْنيه حيًّا. وهذه كانت عادتُه في وصاياه بجنوده إذا قصدوا عدوًّا؛ ينهاهم عن قتله. وسار أرسلان، والتقَوا، فانهزم أبو إبراهيم، وأتبعه أرسلان، فلمَّا دنا منه قال: أمَا تستحيي مني؟ تُريد أن تقتُلَني وأنتَ مولاي ومولى آبائي؟ فرجع عنه؛ لأنه كان من مماليك السَّامانية، فانتهى أبو إبراهيم إلى حِلَّةِ قومٍ من العرب يقال لهم: بنو خَمَّان، فعرفوه وأنزلوه وأكرموه، ونام من شِدَّة التعب، فقال رئيس الحِلَّة: هذا رجلٌ مطلوبٌ، والصواب أن يُقبَضَ عليه، فإنه طَلِبَةُ محمود. فقالوا: ما هذا فِعْلُ العرب، ولا يحسُنُ، ولا جرَتْ به عادة. فلم يقبَلْ، وقتَلَه وهو نائم، وجعل رأسه في مِخْلاةٍ، وجاء به إلى محمود، واستأذن وقال: معي سِرٌّ لا أذكرُه إلَّا للملك. فأحضره بين يديه، وأخرج الرأسَ من المِخْلاة، وألقاه إليه، فوجَمَ محمود وقال: كيف فعلتَ به؟ فحكى له صورةَ ما جرى، فبكى بكاءً شديداً، وأمَرَ بصَلْبِ الأعرابي، وبعثَ أرسلان إلى العرب، فقتل جميعَ مَنْ في الحِلَّة حتى النساء والصبيان، وقال: واللهِ لا تركتُ منهم نسمةً تشمُّ الهواء. وقال محمود: هؤلاء قومٌ قتلوا ملكاً، وخرقوا ذِماماً، وفارقوا رسومَ العرب، أفلا أقتُلُهم؟ ز

وأياز مملوك محمود صاحب الحكايات. ولمَّا عبر محمود وراء النهر ووصل إلى بلاد مَدْرخان وكان ملكاً عظيماً، مشى السُّفراء بينهما في إصلاح الحال، واستقرَّ أن يركب كلُّ واحدٍ في عشرين غلاماً من خواصِّه ويجتمعا، فلمَّا اجتمعا أخذ أياز قوساً، وفوَّقَ سهماً[1]، فقال محمود: ما هذا؟ قال: رأيتُ واحداً من أصحاب مَدْرَخان قد فَوَّقَ سهماً، ففعلتُ مثله شفقةً عليك، ثم اجتمعا، وسأله محمود الممالحة، فأبى،

(١) فَوَّق السهم: عمِلَ له فُوقاً، وفُوق السهم: هو المكان الذي يثبت الوتر منه. المعجم الوسيط (فوق).

وقال: هذا يومُ سلام لا يومَ طعام. فلم يزل يُراجعه حتى أجاب، وضرب له محمود خَرْكاةً[١] من ذهب، وغشَّاها بالسَّبَج[٢]، وأحضر منقلاً من ذهب، وعِوَضَ الجمر أُكَراً[٣] من ذهب، فأكلا، وتعاهدا، وقَدِمَ الخَرْكاة، وكشفها حتى شاهدها، فقال مَدْرَخان: نحن ما نعرف هذه، ولا تصلح لنا. فقال محمود: الذهب لا يُستغنى عنه. ولم يزل به حتى قَبِلها.

ولمَّا أوغل محمود في بلاد الهند في السنة التي انقطع فيها خبرُه، وأرجف بهلاكه، عبر جَيْحون مع أيلك التركي في مئة ألف غلام، فاستولى على بَلْخ وهَراة ومرو ونيسابور، وهرب نُوَّاب محمود، وعرف ذلك، فرجع إلى غَزْنة في أربعة آلاف رجل، ونزل بقية عسكره وراءه، فتلاحقوا، حتى اجتمع عنده خمسون ألفاً، وكان معه فيلٌ عظيمٌ، وسار فقطع جَيْحون، وخرج أيلك في مئة ألف من بَلْخ، فقال الفيَّال لمحمود: اركب الفيل فركبه وحمل، فقال محمود للفيَّال: اقصد الراية. فقصدها، فحمل عليه صاحبُ الراية، فأخذها الفيل بخرطومه فكسرها، وانهزموا، وكان مَنْ غرِقَ في جَيْحون أكثر ممَّن قُتِل، وغنِمَهم وأخذ جميع ما كان معهم، ولمَّا وصلوا إلى جَيْحون أمر محمود أصحابَه بالكفِّ عنهم، وهذه كانت عادتُه، وكان خُوارَزم شاه يومئذٍ من بعض مماليكه، وجيشُه عشرة آلاف.

وجلس يوماً بين يديه ولداه محمد ومسعود، فقال لمحمد: إن حدَثَ فيَّ أمرُ الله ما تصنع؟ فقال: ألزَمُ تربتكَ، وأصومُ، وأتصدَّقُ عنكَ، وأقرأُ وأترحَّمُ عليك. فقال لمسعود: وأنت؟ فقال: إنِ اتَّفق أنك تستشهد في أرضٍ قتلتُ أهلَها، ولم أترُكْ فيها أحداً، وأخذتُ بثأرِكَ، وأُواصِلُ الغزو، وأجعلُ لكَ حظًّا من كلِّ غزوة، وأتصدَّق عنك، وأُخرِجُ في كلِّ سنةٍ مَنْ يحجُّ عنك. فقال: فما تعمل مع أخيك؟ قال: ما فعلتَه أنتَ بأخيك. وكان محمود قد أحضر أخاه إسماعيل في قلعة وقبض عليه وقتله، فغضب محمود، وكانت رجله في حجر مسعود، فجذبَها وأقامه، وكان مقصود محمود من فتح

(١) الخَرْكاة: الخيمة الكبيرة. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٥٣.

(٢) السَّبَج: الخرز الأسود، وهي كلمة معرَّبة أصلها: سَبَه. اللسان (سبج).

(٣) الأُكَر؛ جمع أُكْرَة: وهي عقدة على شكل التفاحة تستعمل للزينة. تكملة المعاجم لدوزي ١/ ١٦٦.

الريِّ أن يرتب ولده مسعوداً فيها، ويُبعِدَه عن محمد. وضمَّ إليه سبعةَ عشر ألف رجل، لم يُعْطِه مالاً، وقال: استخرِجْ من الارتفاع ما يكفيك. وكان عفيفاً عن أموال الناس، فاحتاج إلى نفقة الجند، فكسر أواني داره، وأنفقها فيهم، واستدعاه وقال: أُريد أن تحلِفَ لي إنْ حدث بي حادثٌ أنك لا تُقاتِلُ محمداً أخاكَ ولا تنازعُه. فقال: أفعل هذا بعد أن يشهد مولانا عليه أنني لستُ ولدَه. قال: فكيف يكون ذلك؟ قال: لأنني إن كنتُ ابنَه فلي حقٌّ في خراسان وفي المال. قال: فهو يحمل إليك حقَّكَ. فقال: إذا حضر هاهنا والتزم هذا فعلتُ، أمَّا أن يكون بغَزْنة وأنا بالريِّ فلا ألتزم له ذلك. وجرَتْ بينهما محاورات، وقال له في آخر كلامه: فاحلِفْ لي أنك لا تتزوج من الدَّيلم. فقال: أمَّا هذا فنعم. وحلف له.

وكان أبو القاسم أحمد بن الحسن المِيْمَنْدي قريباً من محمود، ولم يكن نافذاً في الكتابة، وإنما قدَّمه محمود لمقام قام به في خدمته، وذلك لأنه غزا بلادَ قشمير، فنزل على قلعتها، وكانت حصينةً، فتأخَّر عنها إلى بُعْدٍ، وركب يوماً في بعض خواصِّه منهم المِيْمَندي، وقصد تلًّا قريباً من القلعة ينظر من أين يصل إليها، ورآه القوم من رأس القلعة، فأرسلوا مَنْ أحاط بالتلِّ، وشاهد محمودٌ وأصحابُه الهلاكَ عياناً، فقال [له] (١) المِيْمَندي: لا تضطرِبْ، فسأحتال في خلاصنا، فتقدَّم إلى الهند وكلَّمَهم، فقالوا: من أنتَ؟ فقال: محمود الملك. فقالوا: لك نريد. فقال: عندي من ملوككم فلانٌ وفلانٌ، وأنا أفدي نفسي بهم، وأُحضِرُهم هاهنا، وأنزِلُ على حُكمِكُم فيما تقترحونه. فَسُرُّوا بهذا القول، وقالوا: أحضرِ القومَ. فقال لبعض الغلمان: امْضِ إلى ولدي وعسكري، وعرِّفْهم خبري، وأحضِرْ فلاناً وفلاناً وفلاناً؛ لأُخلِّص بهم نفسي. فلمَّا توجَّه ردَّه وقال: هذا صبيٌّ ما يُحسِنُ أن يُؤدِّي ما أُريده. ثم التفتَ إلى محمود وقال: أنت عاقل، فامْضِ وعَجِّل. فمضى، فلمَّا وصل إلى عسكره التقاه قومٌ، وقبَّلوا الأرضَ بين يديه، ورآهم الهنود من أعلى القلعة، فسألوا المِيْمَندي عنه، فقال: هو محمود، وقد احتَلْتُ في خلاصه، فأَعْجَبَ الملكَ فِعْلُه وقال: فتوسَّطِ الحالَ بيننا وبينه. ففعل ذلك، ورحل

(١) هذه الزيادة من (ف).

عنهم، وكان محمود يرى للمِيمَندي ذلك، ودخل عليه يوماً وقال: يا مولانا، قد وصلتُ ابنتي بابن أخي، وأريد الغلمان يحضرون عندي. فقال: نعم، وما يُستكثر لك. وكان يوسف أخو محمود حاضراً، فقال محمود للمِيْمَندي: ما اسمُ العروس؟ فقال: أزليخا. قال: والصِّهر؟ قال: أحمد. فقال له محمود: لا تظلِمْها، فإنَّ الله زوَّجَ يوسفَ بأزليخا، وقد رأيتُ أن أُزَوِّجَها بأخي. فقبَّلَ الأرض وقال: هذا أمرٌ ما حدَّثْتُ به نفسي قطُّ؛ لأنه أكبرُ من قدري. وقال محمود ليوسف: ما ترى في هذا الأمر؟ فقال: السلطان المُعظَّم يملك نفسي. فقال محمود للمِيْمَندي: غداً أجيء عندك. فقبَّلَ الأرضَ ومضى، فلمَّا كان من الغد جاء محمود وأخوه يوسف إلى دار المِيْمندي، فأكبر الناسُ ذلك، فقال محمود: لا بُدَّ من تشريف أخي بحضوري. ثم عقد العقد، وأكلوا وشربوا، واستدعى محمودٌ ابنَ أخي المِيْمَندي وقال: كسَرْنا قلبَكَ، هذه ألفُ دينار، اشترِ بها جاريةً حسناء، ونحن نُحسِنُ إليك فيما بعدُ. وعظُمَتْ منزلةُ المِيْمَندي، وتزايد محلُّه، ثم قبضَ عليه محمود بعد ذلك واستأصله، وأخذ منه ألفَ ألفِ دينار، وحبسه في القلعة، وسببُه أنَّه دعاه إلى ضيافته، ووضع بين يديه قرصاً مسموماً، فغمز بعضُ غِلمان المِيْمَندي محموداً، فأمر برفعه، وتغيَّر وجْهُ المِيْمَندي، وقام محمود فأطعم منه حيواناً فمات، وأراد المَيْمَندي أن يقتل محموداً ويُجلِس أخاه يوسف مكانَه، فقال محمود: ما جازانا المِيْمَندي. واستشاره محمود في قطع جَيْحون، فأشار عليه بعبوره، فغرم ألفي ألف دينار، ولم يحصُل له غرض، فقال للمِيْمَندي: أنت غرَّرتني، وغرَّمه إيَّاها، ولم يقتُلْه مراعاةً لما فعل معه قديماً، وأقام محبوساً في القلعة حتى مات محمود، وأطلقه مسعودٌ واستوزَرَه.

وكان محمود رَبْعةً من الرجال، صغيرَ العينين، أشقرَ الشعر، مستديرَ اللحية، خفيفَ العارضين، قد وخَطَه الشيبُ فيها، وكان يتوصَّل إلى أخذ الأموال بكل حيلة[1]، وكان بنيسابور رجلٌ تاجرٌ له مالٌ عظيم، فاستدعاه إلى غَزْنة وقال: بلَغَنا أنك قِرمطيٌّ. فقال: واللهِ

---

(١) بعدها في (خ) عبارة: وكان أمر الذين من أخذ النواويس في ذلك. ولم نتبيّنها، والخبر في الكامل ٩/ ٣٩٩.

ما أعرِفُ هذا المذهب، ولا أنا من أهله، بلى لي مالٌ كثيرٌ فخُذْ منه ما تريد، واعفِني من هذه السِّمة. فضحك وقال: اجتمع مع المِيْمَندي [ـ وكان المِيْمَندي يستخلص له المال ـ] فاجتمع به، فَقَرَّر عليه مالاً، فلمَّا عاد إلى محمود قال [له]: أسألك أن تكتب لي كتاباً إلى نيسابور بأنني ما أنا قرمطيٌّ بل سُنِّيٌّ. فضحِكَ وكتبَ له.

وكان سُبُكْتِكين قد أخرب مشهدَ(١) عليِّ بن موسى الرِّضا بطُوس، وأجرى الخيلَ عليه، ودثره وعَفَّى آثاره، فلمَّا وَلِيَ محمودٌ [ولدُه] رأى أميرَ المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه في المنام وهو يقول له: إلى كم هذا؟ فوقر(٢) في نفسه أنَّ ذلك لأجل المشهد، فتقدَّم ببنائه، وردَّه إلى أحسن ما كان عليه، ورَدَّ أوقافه، وكان أهلُ طُوسٍ يؤذون(٣) أكثر مَنْ يزوره، فزجرهم عن ذلك، وعادَتْ حالُه إلى أجمل ما كانت [عليه]، وقصده الناس بالزيارة من بلاد خُراسان [كلِّها] ما وراء النهر، وأمر أن يُجرى لزوَّاره ما يحتاجون إليه.

وأَمَّا ولدُه مسعود فإنَّ كتابَه ورد على الأجلِّ العادلِ بفارس من نيسابور، أنه قد استولى على خُراسان، وملَّك أخاه محمداً، وأبقى عليه وتركه في بعض القلاع مُوسَّعاً عليه، مصوناً، وأنه قد جرد إلى أبي جعفر بن كاكويه إلى الري العساكر، وكان أبو جعفر قد دخلها بسبعة عشر ألفاً يدفعونه عنها، والتمس من الأجَلِّ مخاطبةَ ابنِ كاكويه بالخروج من الريِّ، فأحسن الأجلُّ إلى الرسُلِ وخلع عليهم، وكتب الجواب، وعادوا به إليه.

السنة الثانية والعشرون وأربع مئة

فيها في المُحرَّم نقب اللُّصوص دارَ المملكة وجلالُ الدولة فيها، وأفضَوا إلى حجرةٍ من حُجَر الحرم وأخذوا منها ثياباً، ونَذِرَ بهم فهربوا، فرتَّب الملكُ حُرَّاساً يطوفون حولها كلَّ ليلة(٤).

---

(١) في (م١): مسجد.

(٢) في (م) و(م١): فوجد.

(٣) في (خ): يقتلون، المثبت من (م) و (م١).

(٤) الخبر في المنتظم ١٥/ ٢١٣. ومعنى «نَذِر» هنا: عَلِمَ.